٦ — من ذكرياتي في بلاد النوبة :

نكبة الفيضان !!

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

وأعني بالفيضان مياه الخزن التي يبدأ ارتفاعها وفيضانها في أوائل نوفمبر من كل عام . ولا يستطيع إنسان كائناً ما كان أن ينكر خطر مياه الخزن على بلاد النوبة ، وما جرته على أهلها من ألم ونصب ، ومشقة وعناء ، وما جلبته من فقر وجدب ، وقحط ومسغبة !!

قد يبدو ذلك عجيباً ، ولكنه ليس بعجيب ، غريباً ولكنه ليس بغريب ، لأنه الواقع لا مرية فيه . وهو وإن حاولنا إخفاءه وستره ، فإننا نخفي الواقع ، ونماري في الحق ، ونزيد الداء استفحالا ، والشر طغياناً . ذلك أن الرجل في بلاد النوبة يشعر بهذا الشعور ، ويبديه ولا يكتمه ، ويجعله مادة الحديث في كل مجلس وكل مناسبة . . والمرأة في بلاد النوبة تشعر بذلك وتحس به وتملأه في كل مكان . والصبي والصبية والطفل والطفلة يشعرون جميعاً بذلك ويعلنونه في صراحة .

هذه الحقيقة على مرارتها ، يجب أن ننظر إليها وندخلها في حسابنا لنطلب لهذا الداء ، وندرأ هذا الخطر

ولا داعي للمواربة ، ما دام الأمر قد وصل إلى هذا الحد ، وخير طريق نعالج به ذلك الشعور القوي بالغبن الفادح ، والإحساس بالظلم المبين هو الإصغاء لشكاياتهم والعناية ببحث مشكلاتهم ، بحثاً يدفع بها إلى الحياة لا على طريقة البحوث الآلية التي جرت بها عادة الحكومات والتي لا يكون مآلها بعد تشكيل اللجان إلا زوايا النسيان .. !!

والآن رُب سائل يقول : وهل كذب هؤلاء شعورهم ؟ وهل جانبوا الصواب حينما اعتقدوا هذا ، ورأوا في سد أسوان نقمة لا نعمة ، وشراً لا خيرَ فيه ؟ ثم أصبح مع الأيام عقيدة راسخة ، متأصلة في نفوسهم لا يبغون عنها حِولا ؟!

والجواب الحق ، لا . لم يكذب هؤلاء شعورهم ، ولم يحيدوا عن الحق ، فلقد دهمتهم هذه المياه مرات عديدة . . دهمتهم عند إنشاء السد ، فقالوا : شدة تزول ، ولن تعود . . ورتبوا حياتهم على ذلك واطمأنوا إلى هذه الحياة . فتركوا منازلهم الأولى ، وبنوا مساكن أخرى في نجوة من الغرق . ومأمن من الخطر وساروا على هذا النهج حيناً حتى ألفوا هذه الحياة ، وكادوا ينسون حياتهم الأولى قبل أن ينتقص الفيضان ومياه الخزن أراضيهم التي يزرعونها ، ودورهم التي يسكنونها وبخاصة والمساحة التي أتلفتها مياه الخزن بعد بناء السد لم تكن مساحة واسعة ، بل كانت محدودة ضيقة ، والخسائر ، ليست فادحة ، بل هينة عوضتهم الحكومة بما رأت فيه الكفاية ، وارتضوا ذلك منها ، اعتقاداً منهم أن هذا الخطر على أراضيهم ومنازلهم لن يتكرر ولن يعود ، وبهذا ألفوا هذا الوضع ، على ما به من ألم وضنى .

ثم ماذا ؟ ثم كان ما كان من أمر التعلية الأولى ، فتشتت شمل الجميع ، وتفرقوا أيدي سبأ هنا وهناك ، لا يدرون ماذا يعملون . وكانت حيرة ، وكان اضطراب ، ركاعا هذا الماء المخزون أمام السد ، عدوٌ لدودٌ لهم . . ثم هدءوا وسكنوا ، وأنشأوا بيوتاً جديدة ولكن أرضهم انتقصت أكثر من ذي قبل وطمت مراقيها ، وتلف ذرعها . ووجدوا من عطف الحكومة عليهم ما أعاد إلى نفوسهم الجريحة شيئاً من الطمأنينة والسكينة والاستقرار ، ولكنهم ظلوا يرقبون الحوادث في يقظة ، وكأنما علقت أنظارهم بالسد وارتبطت آذانهم بكل ما يقال عنه ، حتى تكونت في نفوسهم عقدة نفسية تعجز عن حلها الأيام ؛ ثم طال الزمن وامتد ، فنسوا هذا كله ، ووجد أكثرهم في الهجرة باباً من أبواب الكسب خير من الكد والعمل والزراعة والحرث ، فهاجروا إلى القاهرة والاسكندرية ، وإلى كثير من عواصم الأقاليم والمديريات .. وانبثوا في نواحي القطر ، بحيث لا تكاد تخلو منهم بلدة من بلاده ، أو قصر من القصور ، أو مصلحة ما من مصالح الحكومة ووزاراتها ...

أما التعلية الثانية أيام صدقي باشا عام ثلاثة وثلاثين وتسعمائة وألف

فقد أثارت كوامن النفوس ، ودخائل القلوب ، وطفح الكيل بأبناء النوبة وهم يرون منازلهم للمرة الثانية ، أو الثالثة في بعض المناطق الواطئة ، القريبة من سطح النيل ، يفتك بها الماء ويطغى عليها في ثورة حانقة ، واندفاع مغيظ ..

حدثني أحد النوبيين فقال : كان أكثرنا يرى منزله يغرقه الماء رُويداً رويداً ويقضي على ما به من غلات مختزنة ، وأثاث قليل ، ولا يستطيع أن يعمل شيئاً ، لأنه مشغول بنفسه وأولاده الصغار ، وضعاف النسوة والشيوخ . !

ويمكنك أن تدرك ذلك واضحاً جلياً حينما ترتفع مياه الخزن وتبلغ ذروتها في شهر فبراير ومارس تقريباً . . لقد كنا نخرج إلى النيل ، نسير بجانب الشاطىء ، فلا يتمالك الإنسان نفسه من الأسى واللوعة والحزن ، حينما يرى ذلك النخيل وأشجار الدوم الذي كان في يوم من الأيام مورد ثروة وغنى لهؤلاء النوبيين ، ومظهر فخار ويسار ، يراه وقد تبدل الحال وتغير ، فإذا به رمز الفقر والبؤس ، تترقرق الدموع في عيون أصحابه كلما يرونه على هذه الحال ، غريقاً في النيل ، لا يبدو منه سوى رءوسه الخضر التي أخذت هي الأخرى في الذبول والانقراض بتوالي الأيام ، وكأنما هو عالم من البشر والعمالقة يبيت بآخر أنفاسه من جراء طوفان أليم ..

لقد كان إيراد النخلة الواحدة عشرة جنيهات على الأقل ، فمن كان يملك عشر نخلات أو عشرين نخلة يحيا حياة سعيدة منعمة ، كلها اليسر والرخاء . . أما الآن فقد نقص ثمار النخلة إلى حد كبير ، ولم تعد تغل أكثر من عُشر ما كانت تغله قبل أن تغمرها مياه الخزن ، هذا فضلا عن النخيل الذي يتساقط على الدوام عاماً بعد عام . . أما قبل التعلية الثانية ، فكان عدد النخل وأشجار الدوم يتزايد يوماً بعد يوم ، وثمره يحلو ويكثر عاماً بعد عام ، وعناية الأهلين به تعظم كلما زاد دخلهم منه ، وتحقق أملهم فيه .. !!

ولا زلت أذكر تلك الثورات الصاخبة الطاهرة ، التي كانت تنبعث من قلوب تلاميذي في الفصل ، وتهتف بها حناجرهم ، وتبدو مغيظة مدمرة ، حينما كنت أتحدث معهم في موضوع إنشائي ، يتناول سد أسوان ، منافعه وآثاره .. !

منافعه وآثاره ؟! إنه لا منفعة له ولا فائدة فيه ..

هكذا كانت عقيدة التلاميذ ، وهكذا كانوا يعلنون هذه العقيدة على الرغم من حديثي الطويل معهم ، ومناقشتي لهم ، وشرحي لعناصر الموضوع .. إن واحداً منهم لا يؤمن بهذا السد ولا يعترف به ، ولا يعتقد أنه أدى مصلحة ما إلى القطر عظمت أم حقرت ، بل على العكس من ذلك يجب أن يكون الموضوع ، وتعرض القضية ...

لقد عذرتهم حينذاك ، لأن كل واحد منهم ، لا يرى سوى أثره في بلاده ، وخطره عليها ، وأضراره اللاحقة بها ، وأنه حرمهم اللقمة السائغة ، والنبتة الناضرة ، والدوحة الباسقة ، والثمرة اليانعة ، والخير الوفير .. وطاردتهم المياه المحجوزة أمامه في عنف وقسوة وجبروت ، وأخرجتهم من دورهم ، وهدمتها هدماً ، وطمست معالمها طمساً ، وظلت تطاردهم في إلحاح ، حتى جعلتهم يسكنون فتن الجبال ، وذرى الهضاب حيث الصخر الصلد لا تؤثر فيه المعاول ، ولا ينبت فيه نبات .. !!

وبالغ بعض النوبيين في تصوير هذه البلاد على صورة عجيبة غريبة ، لقد قال : إنها كانت قبل التعلية الثانية جنة فيحاء ينعم أهلها بالخيرات صنوفاً وألواناً ، ولا تكاد تفترق بحال من الأحوال عن أنضر بقعة من بلاد القطر ، غنى وثراء ..!!

ولم يرقني هذا القول كثيراً ، لما فيه من المبالغة ، التي لا يجدر بالمخلص أن يتصف بها ، لأنها تضر أكثر مما تنفع ، فليس الوضع على ما يفهمه المتطرفون ، من أنه عداء ونضال ، وبغية ساب هذه البلاد خيرها ، وحظها من الخير والنعم ، بل هي الحاجة التي دفعت إليها مصلحة القطر المصري كله ، كما أبنت عن هذا آنفاً . . وهذه سنة الكون ، وقانون الوجود .. فلا داعي إذن للمبالغة والمغالاة ، وتصوير الواقع في غير صورته .. إذ أن المساحة المزروعة قبل التعلية لا تكاد تذكر ، ومهما كانت من الخصب والنماء ، فإنها يجب ألا تصور على هذه الصورة ، ولا تنال هذه المنزلة . . ويخيل إلي أن الغلو في التصوير ، والمبالغة في التعبير ، قد أصبح قاعدة يسير عليها الناس ، حتى لا يكاد الباحث يدرك حقيقة الأمر كما يرجو ويحب ، قداسة ونزاهة .. وأعتقد أن الأمور لو وُزنت كما يجب أن توزن ، لعرفنا المهم والأهم